

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
الْمُصَبَّحُ الْمُنِيرُ فِي تَهْذِيبِ تَفْسِيرِ ابْنِ كَثِيرٍ
سُورَةُ طَهٍ (٢)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.
قال المصنف -رحمه الله- في تفسير قوله تعالى: **(وَمَا تُلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىْ قَالَ هِيَ عَصَایِ اَتُوَکَّاً**
عَلَيْهَا وَأَهْشُ بِهَا عَلَى عَنْمَى وَلَى فِيهَا مَارِبُ اَخْرَى قَالَ اَلْقِهَا يَا مُوسَىْ فَالْلَّاقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى
قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخْفَ سَنْعِدُهَا سِيرَتَهَا اَلْأَوَى [سورة طه: ٢١-١٧]، هذا برهان من الله تعالى لموسى -عليه
السلام-، ومعجزة عظيمة، وخرق للعادة باهر دل على أنه لا يقدر على مثل هذا إلا الله -عز وجل-، وأنه
لا يأتي به إلا نبي مرسل.

وقوله: **{وَمَا تَلَكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى}**، قال بعض المفسرين: إنما قال له ذلك على سبيل الإناس له، وقيل: إنما قال له ذلك على وجه التقرير، أي: أما هذه التي في يمينك عصاك التي تعرفها فسترى ما نصنع بها الآن، **{وَمَا تَلَكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى}**، استفهام تقرير، **{قَالَ هِيَ عَصَابَىٰ أَتَوْكَأَ عَلَيْهَا}** أي: أعتمد عليها في حال المشي، **{وَأَهْشُ بِهَا عَلَىٰ غَنْمِي}** أي: أهز بها الشجرة ليتساقط ورقها لترعاه غنمى، قال عبد الرحمن بن القاسم عن الإمام مالك: الهش أن يضع الرجل المجن في الغصن ثم يحركه حتى يسقط ورقه وثمره ولا يكسر العود، فهذا الهش ولا يخطط، وكذا قال ميمون بن مهران أيضاً.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلوة والسلام على رسول الله، أما بعد:

قوله -تبارك وتعالى-: **{وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى}**، يقول الحافظ ابن كثير -رحمه الله-: "قال بعض المفسرين: إنما قال له ذلك على سبيل الإناس له"، أي: أنه قبل أن يرسله إلى فرعون وأن يخاطبه بما خاطبه به من أمر الرسالة أراد أن يزيل عنه الوحشة فسأله عن أمور ليست هي المقصودة، هذا مقصود قول من قال: إنه على سبيل الإناس، كمن أردت أن تحدثه أو تحدثه عن أمر وهو في حال من الخوف والارتباك فسألته عن أمور أخرى ليست هي المقصودة من أجل الإناس، ثم بعد ذلك تحدث معه عن المقصود، لهذا يوجد في كتاب الحيدة وإن لم يثبت من جهة الإسناد في أول ذلك سؤالات عن بعض الأمور في المكان الذي جلس فيه الخليفة، وسؤاله عن بعض الشفوق في الجدران ونحو ذلك، قبل أن يسأل عن موضوع القرآن، والقول بخلق القرآن، فيما يذكر عن عبد العزيز الكناني لو صحت القصة، يقول: "وقيل إنما قال له ذلك على وجه التقرير، أي: أما هذه التي في يمينك عصاك التي تعرفها فسترى ما نصنع بها الآن"، بمعنى: قرره بأنها عصا، وأنها ليست أكثر من ذلك، والعصا لا حياة فيها ولا روح، فقرره بذلك من أجل أن يقول: هي عصا، ثم بعد ذلك يريه منها حالاً آخر لا يمكن أن تكون هذه العصا بهذه المثابة إلا بطريق المعجزة، هذا مراد من قال بأنه على سبيل التقرير، أليست هذه هي عصا؟، ولهذا قال بعضهم: وهذا لا يختلف عما قبله بأن المراد التتبّيه عليها لتفعيل المعجزة فيها والتأمل، أراد أن يلتف نظره إليها، لما سيقع بعد ذلك

من المعجزة بها، وهذا لا شك أنه هو المناسب في تفسير الآية خلاف قول من قال بأن المقصود بذلك الإيناس، لو كان مجرد الإيناس لكن ذلك من غير وقوع المعجزة في العصا، قوله: **(وَأَهَشْ بِهَا عَلَى غَنَمِي)**، يقول: "أي أهذ بها الشجرة ليتساقط ورقها لترعاها غنمي"، ونقل "عن الإمام مالك: الهش أن يضع الرجل المحجن في الغصن"، والمحجن هو العصا التي في طرفها انحنا، معطوفة من طرفها، يقول: "ثم يحركها حتى يسقط ورقه وثمره ولا يكسر العود، فهذا الهش، ولا يخطب"، الخطب الضرب، فيتساقط الورق، هكذا قال الإمام مالك، مع أن هذا ليس محل اتفاق كثير من أهل العلم، وهو اختيار ابن جرير: فسره بالخطب، يخطب الشجر فيتساقط الورق، وقرأه نافع بالسين "أهس"، وفسر بالمعنى السابق، قال بعضهم: هما لغتان، وبعضهم فسره بزجر الغنم.

وقوله: **{ولِيَ فِيهَا مَارِبٌ أُخْرَى}**، أي: مصالح ومنافع وحاجات آخر غير ذلك، وقد تكلف بعضهم لذكر شيء من تلك المارب التي أبهمت.

ألف البعض رسالة مجلداً - في منافع العصا، ومثل هذا لا شك أنه من الترف الفكري كما يقال، والاشتغال بأمور قليلةفائدة، ما هي فوائد العصا؟! والرجل الذي ذكر فوائد العصا ذكر جملة كثيرة منها في كلامه، فهو يتوكأ عليها، وييهش بها غنمته، ويختبئ بها الشجر، وتكون بين يديه في الصلاة، ويدفع عن نفسه بها الكلاب والسباع، ويطاعن بها العدو، ويضع عليها رداءه فتكنه من الشمس، ومن المطر، وهذه العصا يحصل بها أمور أخرى كثيرة ذكرها لا حاجة للتطويل في هذا، يقول: **{ولئِ فِيهَا مَارِبٌ أُخْرَى}** حاجات أخرى، ما يحتاج إليه في العصا، ومن الناس من يحمل العصا عادة، وسواء كانت عصا أو درة أو نحو ذلك، ومعلوم أن النبي - صلى الله عليه وسلم - لربما توکأ على عسيب، ولربما كانت بيده، فتووضع بين يديه العزبة سرمح صغير - في الصلاة، وعمر - رضي الله عنه - كان يحمل الدرة كثيراً، ولا زال في بيئات من المروءات ومن الكمالات في الذي ونحو ذلك أن يحمل الإنسان العصا، ربما لا زال هذا موجوداً في السودان إلى اليوم، من كمال الذي أن الإنسان يحمل معه عصاً.

وقوله تعالى: **{قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى}**, أي: هذه العصا التي في يدك يا موسى ألقها, قال: **{فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَةٌ تَسْعَى}**, أي صارت في الحال حية عظيمة، ثعباناً طويلاً يتحرك حركة سريعة، فإذا هي تهتز كأنها جان، وهو أسرع الحيات حركةً ولكنه صغير، فهذه في غاية الكبر وفي غاية سرعة الحركة، **{تَسْعَى}**, أي: تمشي وتضطرب.

قال تعالى: {سَتُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى} أي إلى حالها التي تعرف قبل ذلك. قوله: {فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى} ما ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله- قال: "صارت في الحال حية عظيمة، ثعباناً طويلاً يتحرك حركة سريعة"، هذا جمع بين الآيات الواردة {فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ} [سورة الأعراف: ١٠٧]، وبين قوله: {كَانَهَا جَانٌ} [سورة النمل: ١٠] والجان صغير الحيات، وهو سريع الحركة جداً، والثعبان الحية العظيمة، ويجمع بين وصف هذه الحية بأنها جان أو كأنها جان، وبين كونها ثعبان مبين بما ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله- فهي ضخمة جداً فهي ثعبان، وهي سريعة الحركة، فلسرعة حركتها وصفها بهذا الوصف {كَانَهَا جَانٌ}.

وقوله: {تَسْعَى}، أي: تمشي وتضطرب، قوله: {سَنُعِدُّهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى}، يعني: إلى حالتها السابقة، يقال لكل من كان على أمر فتركه: رجع سيرته، وإلى سيرته، ورجع لسيرته، يعني: إذا رجع لما هو عليه، يعني: ترجع عصا.

(وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءِ آيَةَ أُخْرَى * لِنُرِيكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى * اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى * قَالَ رَبَّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي * وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي * وَاحْلُّ عَقْدَةَ مِنْ لَسَانِي * يَقْفَهُوا قَوْلِي * وَاجْعَلْ لَيْ وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي * هَارُونَ أَخِي * اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي * وَأَشْرِكْ فِي أَمْرِي * كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا * وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا * إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا} [سورة طه: ٢٢-٣٥]، وهذا برهان ثانٍ لموسى - عليه السلام - وهو أن الله أمره أن يدخل يده في جيبيه كما صرخ به في الآية الأخرى، وهاهنا عبر عن ذلك بقوله: (وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ)، وقال في مكان آخر: (وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ) [سورة القصص: ٣٢]، وقال مجاهد: (وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ) كفك تحت عضدك، وذلك أن موسى عليه السلام - كان إذا دخل يده في جيبيه ثم أخرجها تخرج تتلاًّ كأنها فلقة قمر، قوله: {تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءِ} أي: من غير برص ولا أذى، ومن غير شين، قاله ابن عباس - رضي الله تعالى عنهما - ومجاهد وعكرمة وفتادة والضحاك والسدوي وغيرهم، قال الحسن البصري: أخرجها والله كأنها مصباح، فعلم موسى أنه قد لقي ربه - عز وجل -، ولهذا قال تعالى: {لِنُرِيكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى}.

يقول: (وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ)، وقال في مكان آخر: (وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ)، يقول: "قال مجاهد (وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ) كفك تحت عضدك"، الجناح فسره بعضهم - كالفراء والزجاج - بالعهد، وفسره بعضهم - كقطرب - بالجانب، والله - عزوجل - يقول: (وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ} [سورة الإسراء: ٢٤]، يعني: واحفظ لهما جناحك الذليل، فسر بالجانب، يعني: واحفظ لهما جانبك، يعني: تواضع، وهذه الأقوال - والله أعلم - لا منافاة بينها، فالذين يقولون هو الجانب، أو الذين يقولون هو العهد، فإن العهد يكون بجانب الإنسان، فالعهد يكون بجانب الإنسان، حتى إن من أهل العلم في تفسير قوله: (وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ} من قالوا: إن الإنسان إذا أراد أن يبطش فإنه يرفع يديه، وهكذا قالوا بأن العهد أو اليد من الإنسان، وكذلك أيضاً الجانب هو محل الجناح من الطائر، فإذا قال: (وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحِكَ) أو (وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ) يعني: إلى جانبك، فإذا ضم يده إلى جانبه فإن ذلك هو محل العهد كما هو معروف، ففي قوله - تبارك وتعالى -: (وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ) فهذا يحصل به كمال الطمأنينة، ويدرك عنه الخوف، وفي قوله - تبارك وتعالى -: (وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ) تخرج بيضاء، يعني: أنها تخرج بهذه الصفة، بعضهم يقول: كأنها قطعة قمر، {مِنْ غَيْرِ سُوءِ}، أي: من غير علة ولا داء أو برص أو نحو ذلك، فهذه آية يراها الناس، وإذا ضم إليه جناحه حصل له من الطمأنينة وزال عنه وتلاشي الخوف، وهذا يحتاج إليه في دعوة فرعون ومخاطبته، وهذه آية أخرى لموسى - صلى الله عليه وسلم - قد لا يطلع عليها الناس، لكن إخراج اليد بيضاء هذه آية يرونها ويشاهدونها.

وقوله: {اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى}، أي: اذهب إلى فرعون ملك مصر الذي خرجت فاراً منه وهارباً فادعه إلى عبادة الله وحده لا شريك له، ومره فليحسن إلىبني إسرائيل ولا يعذبهم، فإنه قد طغى وبغي وآخر الحياة الدنيا، ونسى الرب الأعلى.

كل من تجاوز حد فائه يوصف بأنه طغى، {إِنَّا لَمَا طَغَى الْمَاء} [سورة الحاقة: ١١]، يعني: تجاوز الحد، حصل ما حصل من الغرق والطوفان.

{قَالَ رَبَّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي * وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي} هذا سؤال من موسى -عليه السلام- لربه -عز وجل- أن يشرح له صدره فيما بعثه به، فإنه قد أمره بأمر عظيم وخطب جسيم، بعثه إلى أعظم ملك على وجه الأرض إذ ذاك، وأجبرهم وأشدتهم كفراً، وأكثرهم جنوداً، وأعمرهم ملكاً، وأطغفهم وأبلغهم تمرداً، بلغ من أمره أن ادعى أنه لا يعرف الله، ولا يعلم لرعاياه إلهاً غيره، هذا وقد مكث موسى في داره مدة وليداً عندهم في حجر فرعون على فراشه، ثم قتل منهم نفسها، فخافهم أن يقتلوه، فهرب منهم هذه المدة بكمالها، ثم بعد هذا بعثه ربه -عز وجل- إليهم نذيرًا يدعوهم إلى الله -عز وجل- أن يعبدوه وحده لا شريك له، ولهذا قال: {رَبَّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي * وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي}، أي: إن لم تكن أنت عوني ونصيري وعنصري وظهيري وإلا فلا طاقة لي بذلك.

{وَاحْلُلْ عَقْدَةَ مَنْ لَسَانِي * يَقْهُوْا قَوْلِي} وذلك لما كان أصابه من اللثغ حين عرض عليه التمرة والجمرة، فأخذ الجمرة فوضعها على لسانه، وما سأله أن يزول ذلك بالكلية بل بحيث يزول العي، ويحصل لهم فهم ما يريد منه، وهو قدر الحاجة ولو سأله الجميع لزال، ولكن الأنبياء لا يسألون إلا بحسب الحاجة، ولهذا بقيت بقية، قال الله تعالى إخباراً عن فرعون أنه قال: {أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبَيِّنُ} [سورة الزخرف: ٥٢]، أي: يفصح بالكلام.

قوله: {قَالَ رَبَّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي * وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي} هذا يحتاج إليه في الدعوة مع مثل هذا المتكبر ، العاتي عن الله -تبارك وتعالى-، فإن من يدعى الربوبية وينكر ويکابر يقول: {مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي} [سورة التصص: ٨٨]، مثل هذا لا تطيق النفوس رؤيته ولا سامع كلامه، فيحتاج من أراد أن يدعو أمثال هؤلاء إلى انشراح، بل كل من أراد أن يقبل على أمر من الأمور فهو يحتاج إلى ذلك، ولهذا يقال فيمن أراد أن يتتصدر للدعوة لاسيما دعوة من يصدر منهم الكلام الفج، والفعال القبيحة التي تظلم معها النفوس عند سمعها، فإن مثل هذا يحتاج إلى شرح صدر وما كل أحد يطيق ذلك، ما كل أحد يصلح لهذا، وإذا قرأت لكتابات هؤلاء البرابيين مثلاً ورأيت الطعن في الدين واللعن والسخرية من الحجاب والدعوة إلى الفساد والاختلاط، والكتابات التي كلها ربما لا تصدر إلا عن نفس متمردة على الله -عز وجل- الإنسان تضيق نفسه حين يقرأ هذا، ويجد من الألم والحسنة الشيء الكثير، ومن أراد أن يدعو هؤلاء فإنه يحتاج إلى شيء من سعة الصدر، والصبر أكثر من غيره من يدعوا أناساً لهم شيء من الغفلة، فإن رؤية هؤلاء لا تطاق، وقراءة ما يكتبون أمر لا يطاق بحال من الأحوال، وما كل أحد يصبر على مثل هذا، ولا على مطالعة ما يقولون وقراءته، نسأل الله العافية.

وقوله تعالى: **{قَالَ رَبُّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي * وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي}**، يقول: **{وَاحْلُلْ عَقْدَةً مِنْ لَسَانِي * يَفْقَهُوا قَوْلِي}**، ما يذكر من أن موسى -عليه الصلاة والسلام- في الصغر لما خافه فرعون، يذكرون في هذا أشياء، يقولون: إنه كان وهو صغير يشد لحية فرعون بقوه، وإن فرعون خاف، فهم بقتله فقلت امرأته: إنه لا يفقهه، صغير، واحتبروه بوضع تمرة وجمرة، وإن الله -تبارك وتعالى- ألهمه أخذ الجمرة من أجل أن يصرفهم عنه، هذا يذكر كثيراً في كتب التفسير، ولكن لا أعلم له مستنداً صحيحاً، وموسى -عليه الصلاة والسلام- كان فيه هذه العقدة في لسانه وقوله: **{وَاحْلُلْ عَقْدَةً مِنْ لَسَانِي * يَفْقَهُوا قَوْلِي}** ما ذكر هنا من المعنى صحيح باعتبار أنه ما سأله رفع ذلك أجمع، وإنما الحد الذي يحصل به الإبانة والإفهام للمخاطبين، بدليل أن فرعون قال: **{أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبَيِّنُ}**، ففرعون مكابر وكذاب، لكن يدل على هذا أن موسى -صلى الله عليه وسلم- لما طلب أن يرسل الله معه هارون علل ذلك ومن جملة ما علل به قال: **{هُوَ أَفْسَحُ مِنِّي لِسَانًا}** [سورة القصص: ٣٤]، فهذا يدل على أنه بقي شيء من ذلك، والله أعلم.

وقوله: **{وَاجْعَلْ لَيْ وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي هَارُونَ أَخِي}** وهذا أيضاً سؤال من موسى -عليه السلام- في أمر خارجي عنه، وهو مساعدة أخيه هارون له، قال الثوري عن أبي سعيد عن عكرمة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهم- أنه قال: **فَنَبِيَّ هَارُونَ سَاعَتْهُ حِينَ نُبَيِّ مُوسَى -عَلَيْهِمَا السَّلَامُ** -، وروى ابن أبي حاتم عن عائشة -رضي الله تعالى عنها-: أنها خرجت فيما كانت تعتمر، فنزلت ببعض الأعراب، فسمعت رجلاً يقول: أي أخ كان في الدنيا أفعى لأخيه؟ قالوا: لا ندرى، قال: أنا والله أدرى، قالت: فقلت في نفسي: في حلقه لا يستثنى، إنه ليعلم أي أخ كان في الدنيا أفعى لأخيه، قال: موسى حين سأله لأخيه النبوة، قلت: صدق والله، قلت: وفي هذا قال الله تعالى في الثناء على موسى -عليه السلام-: **{وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا}** [سورة الأحزاب: ٦٩].

وقوله: **{اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي}** قال مجاهد: ظهري، **{وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي}**، أي: في مشاورتي، **{كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا}** قال مجاهد: لا يكون العبد من الذاريين الله كثيراً حتى يذكر الله قائماً وقاعدًا ومضطجعاً، وقوله: **{إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا}**، أي: في اصطفائك لنا وإعطائك إيماناً النبوة، وبعثتك لنا إلى عدوك فرعون، فك الحمد على ذلك.

قوله: **{اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي}** الأزرر هو القوة، وقرأه ابن نافع **{اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي * وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي}**، والفرق بين القراءتين واضح، قراءة الجمهور: أن هذا من جملة السؤال، **{وَاجْعَلْ لَيْ وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي هَارُونَ أَخِي *** **اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي * وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي}**، وعلى القراءة الثانية أنه سأله موسى حين سأله معه هارون -عليه السلام-، وعلل ذلك الطلب بقوله: أشد وأشركه.

{قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى * وَلَقَدْ مَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى * إِذْ أُوْحِيَنَا إِلَيْ أُمَّكَ مَا يُوْحَى * أَنْ اقْذِفْهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفْهِ فِي الْيَمِّ فَلَيُلْقِهِ الْيَمِّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذُهُ عَدُوُّهُ وَأَلْفَتُهُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مَتَّيْ وَلَتُصْنَعَ عَلَيَّ عَيْنِي * إِذْ تَمَشِّي أَخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَذْكُمْ عَلَيَّ مَنْ يَكْفُلُهُ فَرَجَعَنَكَ إِلَيَّ أُمَّكَ كَيْ تَقْرَ عَيْنُهَا وَلَا تَخْرُنَ وَقَتَّتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَّاكَ فُتُونًا} [سورة طه: ٤٠ - ٣٦]، هذه إجابة من الله لرسوله موسى -عليه السلام- فيما سأله من ربها -عز وجل-، وتنكير له بنعمه السالفة عليه فيما كان من أمر أمه حين كانت

ترضعه وتحذر عليه من فرعون وملئه أن يقتلوه؛ لأنه كان قد ولد في السنة التي يقتلون فيها الغلمان، فاتخذت له تابوتاً، فكانت ترضعه ثم تضعه فيه وترسله في البحر وهو النيل، وتمسكه إلى منزلها بحبال، فذهبت مرة لتربيط الحبل فانفلت منها وذهب به البحر، فحصل لها من الغم والهم ما ذكره الله عنها في قوله: **{وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغاً إِنْ كَادَتْ لَتُبَدِّي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَّنَا عَلَىٰ قُلُوبِهَا}** [سورة القصص: ١٠]، فذهب به البحر إلى دار فرعون **{فَالْتَّقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَذَّوْا وَحَزَنَا}** [سورة القصص: ٨]، أي: قدرًا مقدورًا من الله حيث كانوا هم يقتلون الغلمان من بني إسرائيل حذراً من وجود موسى، فحكم الله -وله السلطان العظيم والقدرة التامة- أن لا يربى إلا على فراش فرعون، ويغذى بطعمه وشرابه مع محبه وزوجته له، ولهذا قال تعالى: **{يَأْخُذُهُ عَذَّوْلَىٰ وَعَدَوْلَهُ وَالْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مَّتَّىٰ}**، أي: عند عدوك جعلته يحبك، قال سلمة بن كهيل **{وَالْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مَّتَّىٰ}**، قال: حبتك إلى عبادي، **{وَتُنْصَنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي}** قال أبو عمران الجوني: تربى بعين الله.

وحيثما طلب من ربه قال: **{وَاحْلُلْ عَدْدَةً مِّنْ لَسَانِي * يَقْهُوا قَوْلِي}**، وقال: **{رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي * وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي}**، وقال: **{وَاجْعُلْ لِي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي}** كل هذه الأشياء، فقال الله: **{قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَىٰ}**، فهذا كله إنعام من الله -عز وجل- على موسى -عليه الصلاة والسلام-، ثم ذكره بنعمة أخرى، **{وَلَقَدْ مَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ}** وذلك في حال صغره مما جرى له، قال: **{إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مَا يُوحَىٰ}** والتعبير بالاسم الموصول يفيد التعظيم، **{مَا يُوحَىٰ}** كما قال الله -عز وجل-: **{فَغَشَيْهِمْ مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشَيْهِمْ}** [سورة طه: ٧٨]، يعني: شيء عظيم هائل، وهكذا في قوله: **{فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أُوحَىٰ}** [سورة النجم: ١٠]، كل ذلك يفيد تعظيم هذا الأمر، قال: **{أَنْ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ}**، التابوت: الصندوق، واليم: يقال للبحر، وكذلك النهر الكبير يقال له اليم، **{فَلَيْلَقِهِ الْيَمُ بِالسَّاحِلِ}** فليلقه: هذا أمر، واللام لام الأمر، **{فَلَيْلَقِهِ}** يحتمل أن يكون هذا من قبيل الأمر على ظاهره، فصيغته صيغة الأمر، والمراد أيضاً الأمر، ويكون هذا الأمر من قبيل الأمر الكوني، أن الله -عز وجل- أمر هذا الماء بأن يتصرف بهذا التابوت بما أراد الله -تبارك وتعالى- فيصل إلى فرعون، ويحتمل أن يكون هذا الأمر **{فَلَيْلَقِهِ}** الصيغة فيه صيغة أمر ولكن المعنى ليس كذلك، يعني: لا يراد به الأمر، وإنما معناه الخبر، وجيء به بصيغة الأمر مبالغةً، وذلك أن الأمر كما يقول بعضهم: هو أقطع الأفعال، **{فَلَيْلَقِهِ الْيَمُ بِالسَّاحِلِ}** هذا خبرٌ محقق، وجاء به بصيغة الأمر، والساحل قيل له ذلك: لأن الماء سحله، وأما ما ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله- وذكره الكثير من المفسرين من أن أم موسى كانت تربطه بحبال فإذا خافت عليه عيون فرعون ترکه في الماء، فإذا أمنت سحبت هذا التابوت وأرضعته، هذا لا دليل عليه، وإنما هو مما تلقي عن بني إسرائيل، وظاهر القرآن يدل على خلافه، فالله -تبارك وتعالى- أخبرنا أنه أوحى إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فلقيه في اليم، وقال لها: **{وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْرَتِي إِنَّا رَادُوْهُ إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ}** [سورة القصص: ٧] هذا يدل على أنها تلقيه في اليم، وقال الله -عز وجل- أيضاً: **{يَأْخُذُهُ عَذَّوْلَىٰ وَعَدَوْلَهُ}**، فللقاؤه باليم ليس بهذه الطريقة -أنه يربط بحبال تخوفاً عليه-، هذا بأمر الله -عز وجل- وطمأنها وخبرها -كما سيأتي في تفسير الآية في موضعه إن شاء الله- أنه أمرها بأمررين، كما تضمنت الآية خيرين وبشارتين، تضمنت أمرين ونهرين وخبرين وبشارتين، **{أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خَفْتِ عَلَيْهِ**

فَالْقِيَهُ فِي الْيَمِّ، هذان أمران، {وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْرَنِي} هذان نهيان، {إِنَّا رَادُوهُ إِلَيْكَ وَجَاعَلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ} هذان خبران وبشارتان، فالذى يظهر أنها أمرت أن تلقىه في اليم، فيحمله اليم إلى فرعون، وليس ما ذكر من أنها تربطه ثم بعد ذلك انفلت منها، فحزنت لذلك، وفي قوله: {وَالْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مَّنِي}، يقول: "حبتك إلى عبادى"، هذا هو المشهور، وبعضهم يقول: كان في وجهه صبحة وملحة، وبعضهم يقول: في عينيه ملحة، وكل هذا لا حاجة إليه، فالله -عز وجل- يقول: {وَالْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مَّنِي}، والقول الآخر: {وَالْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مَّنِي} أي: أن الله أحبه، محبة صادرة من الله -تبارك وتعالى-، يعني: أقيت مني عليك محبة، أحببتك، وابن جرير -رحمه الله- يقول: أقي الله محبته على موسى، والقولان بينهما ملزمة؛ وذلك أن الله -عز وجل- إذا أحب عبداً أمر جبريل أن يحبه، فيحبه جبريل فينادى في أهل السماء: إن الله يحب فلاناً فأحبه، فيحبه أهل السماء، ثم يوضع له القبول في الأرض^(١)، فالله إذا أحب عبداً حبه إلى قلوب الخلق، وإذا أغض عبداً بغضه إلى قلوب الخلق، فالقولان متلازمان ولا حاجة إلى الترجيح بينهما، يعني: قول من قال كابن جرير {وَالْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مَّنِي} أي: أن الله أحبه لا يخالف قول من قال بأنه وضع له المحبة في قلوب الخلق؛ لأن ذلك ينتج وينشأ عن محبة الله -عز وجل- في العبد.

وقوله: {إِذْ تَمَشِّي أَخْتُكَ فَتَقُولُ هُلْ أَدْلَكُمْ عَلَىَّ مَنْ يَكْفُلُهُ فَرَجَعَنَكَ إِلَىَّ أَمَكَ كَيْ تَقْرَ عَيْنَهَا}، وذلك أنه لما استقر عند آل فرعون عرضوا عليه المراضع، فأباهما، قال الله تعالى: {وَحَرَّمَنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضعَ مِنْ قَبْلِ} [سورة القصص: ١٢]، فجاءت أخته، وقالت: {هُلْ أَدْلَكُمْ عَلَىَّ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ}، تعنى: هل أدلكم على من يرضعه لكم بالأجرة؟، فذهبت به -وهم معها- إلى أمه فعرضت عليه ثديها، فقبله، ففرحوا بذلك فرحاً شديداً، واستأجروها على إرضاعه، فنالها بسببه سعادة، ورفة، وراحة في الدنيا، وفي الآخرة أعظم وأجمل، وقال تعالى هنا: {فَرَجَعَنَكَ إِلَىَّ أَمَكَ كَيْ تَقْرَ عَيْنَهَا وَلَا تَحْرَنَ}، أي: عليك، {وَقَاتَ نَفْسَاً}.

في قوله -تبارك وتعالى-: {إِذْ تَمَشِّي أَخْتُكَ فَتَقُولُ هُلْ أَدْلَكُمْ عَلَىَّ مَنْ يَكْفُلُهُ} بين الله -عز وجل- في موضع آخر أن ذلك كان بأمر أمه، حيث قالت لأخته: {قُصْيَه} [سورة القصص: ١١]، يعني: أنها تقص أثره -تبحث عنه-، ولما رأته وأبصرته لم تُرِعَ ذلك اهتماماً، وإنما كأنها رأته رؤية عارضة، عن جنب: يعني: أنها لم تلتفت إليه، ولم تقبل عليه إقبال من يعرفه، وإنما كأنه شيء عارض لا يعنيها، فقالت لهم: {هُلْ أَدْلَكُمْ عَلَىَّ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ}، ويدرك المفسرون: أنهم سألوها -والله تعالى أعلم- عن ذلك، يعني: كيف عرفت نصهم؟ فشكوا في هذا، وأنها قالت: إنهم ينصحون له من أجل إسعاد الملك، يعني: رغبة في إسعاده، ورجاء أيضاً -عائدهه وعطائه، والله تعالى أعلم بهذا كله، وبعضهم يقول: إنهم سألوها: من أين أتى اللبن لهذه المرأة؟ فقالت: من أخي هارون، وهارون -عليه الصلاة والسلام- أكبر من موسى، فيقولون: إنه

١ - رواه البخاري، كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة، برق (٣٠٣٧)، ومسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب إذا أحب الله عبداً حبه إلى عباده، برق (٢٦٣٧)، من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه.

كان يرضع أيضاً، لم يكن يعني في نفس العمر لكن فيها لبن، ويمكن أن يقال: إنه يرضع؛ لأنه في سن الرضاعة.

وقال تعالى هنا: **{فَرَجَعَكَ إِلَى أُمَّكَ كَيْ تَقْرَ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنْ}**، أي: عليك.

قال بعض أهل العلم في قوله: **{تَقْرَ عَيْنُهَا}**: هذا من البرودة، القر والحر، فيعبر به عن الفرح والسرور، ويقولون: دموع الفرح باردة، ودموع الحزن حارة ساخنة، وإذا دعوا على إنسان قالوا: أحسن الله عينه، معنى: أنه تحصل له من الفجائع ما يحصل له بالحزن والألم، ولهذا تقول العرب في تشبيهها وأمثالها: أحسن من عين المقلة، يعني: المرأة التي لا يعيش لها ولد، فعينها ساخنة، يعني: من شدة التوجع والحزن على موت أولادها.

{وَقَاتَتْ نَفْسًا} يعني القبطي **{فَجَيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ}** وهو ما حصل له بسبب عزم آل فرعون على قتله، ففر منهم هارباً حتى ورد ماء مدين، وقال له ذلك الرجل الصالح: **{لَا تَخْفُ نَجْوَتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ}**.

أي نعم، قد يكون من أجل هذا، من أجل أنه خاف على نفسه من قتلهم، وكذلك يدل عليه التجية **{فَجَيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ}**، فهذا أحسن من تفسير من فسره بالقتل، بعضهم قال **{فَجَيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ}**: الغم هو القتل، وبعضهم يقول: إن الغم الذي حصل له بسبب أنه قتل هذا القبطي، ويمكن أن يكون هذا وهذا، يعني: هو حزن، يقال: إن هذا وقع على سبيل الخطأ، يعني: أراد أن يضر به -لكن دون القتل-، فكانت هذه الضربة قاتلة، ولم يقصد قتله فحزن لذلك، وكذلك لما جاءه الرجل الذي يقول: **{إِنَّ الْمَا يَأْتِمُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ}** [سورة القصص: ٢٠] أصابه بسبب هذا الغم، وكل ما يغم القلب يقال له: غم، فإذا كان على أمر فائت قيل له: الحزن، فالحزن هو اغتمام القلب من أمر فائت، وأما إذا كان في أمر المستقبل فهذا الذي يسمى بالخوف، وهذا الفرق بين الحزن والخوف، وإن كان قد يستعمل أحدهما في محل الآخر قليلاً، كما قال الله -عز وجل- عن أهل الجنة:

{وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ} [سورة فاطر: ٣٤] فسر بالخوف والإشفاقة من الدار الآخرة؛ لأنهم يقولون: **{إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ}** [سورة الطور: ٢٦] والإشفاقة هو خوف خاص، يعني: الخوف مع علم بالمخوف منه يقال له خشية، فإذا كان هذا الخوف رقيقاً قيل له: إشفاقة، وبأي معنى آخر أيضاً.

فائدة:

قوله: **{وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي}**، معنى أن الله -تبارك وتعالى- هيأه ودبره هذا التدبير، ورعاه هذه الرعاية، وأنشأه هذه النشأة؛ ليقوم بأعباء الرسالة، والدعاء إلى الله -تبارك وتعالى-، يقال: فلان صنع على عين الله، هذه تزكية، ولا نشهد لأحد بمثل هذه الشهادة، لكن من شهد الله -تبارك وتعالى- له نشهد له، فنقول: إن النبي -صلى الله عليه وسلم- مثلاً الله صنعه على عينه، ويمكن أن نقول: الصحابة -رضي الله عنهم- الله صنعهم على عينه، اختارهم لصحبة نبيه -صلى الله عليه وسلم-، أما آحاد الناس فحينما يقال: إن الله صنعه على عينه معنى ذلك أن هذه تزكية كبيرة جداً لهذا الإنسان، ربما تكون أبلغ من الشهادة له بالجنة؛ لأن الشهادة له بالجنة قد لا تقتضي أن يكون نشأ تلك النشأة ولا عمل أ عملاً معتبرة، إنما ختم له بخاتمة السعادة، أسلم فمات

مثل اليهودي الذي قال: أشهد أن لا إله إلا الله عند موته، فحينما يقال: فلان صنعه الله على عينه فهذا يعني أنه نشأ نشأة على عين الله -عز وجل-، وهذا صعب أن يقال لآحاد الناس، والله أعلم.